Arabic

Second prize – Muhammad Atallah Aboud Abdelaal

جولة على استحياء في متجر الأثرياء بسراويل شنعاء

نادراً ما يضيق صدري ويضطرب فؤادي وتتوتر أعصابي كما وقع لي في الأسبوع الماضي حينما نظرتُ فإذا بي فاغر الفم من الدهشة ومُنعقد اللسان من الذهول أتجول بسراويلي غير اللائقة في القاعات المذهَّبة لذلك المتجر الذي يقصده النبلاء ويرتاده الأثرياء.

وما إن عبرتُ أبواب المتجر المعدنية الثقيلة حتى شعرتُ بثقل المكان على قلبي. فقاعاته الواسعة تعجّ برجالٍ ذوي وجوه ناضرة، وبشرة مُشرقة، ولِحى مُهذَّبة تهذيباً دقيقاً كأنها رُسمت بريشة فنان، وأسنان ناصعة لا تقل بياضاً عن سراويلهم الجينز المجسَّمة التي يختالون بها وكأنهم يتفقدون أملاكاً لهم. ويكاد بريق تألقهم يخطف الأنظار، حتى إنك لتجد بعضهم قد احتمى بنظارات شمسية في قاعةٍ من أشعة الشمس محمية! أما عن النساء، فحدِّث ولا حياء: حشود غفيرة من الحسناوات في كامل زينتهن —وكأنهن نجمات على بساط مهرجان سينمائي— يتجولن ببطء وبأيديهن حقائب لا تجدها إلا لدى علية القوم، فهي من إبداع مصممين ما سمعتُ بهم في العالمين.

اتجهنا إلى الأمام، صَوْب قاعة الطعام. وكنتُ في سيرنا أنحرف بهم فجأة عدة أمتار، مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، لنبتعد عن تلك المنصات الرخامية التي تَنُوء بحمل بلورات الثلج المتلألئة، أو عن منصة لحوم تعرض طبقاً يتألف من "دجاجة صغيرة، ونصف بطة، وشرائح من لحم الضأن، وسُجق المرقاز" مقابل 100 جنيه إسترليني. وبينما نحن كذلك كنت أهمس لنفسي بصوت لا يسمعه غيري: "لن أُطعم أطفالي لحم كوبي الياباني أو الكَافْيار الروسي".

إن هذا المتجر بمصاعده المتشابكة المربِكة وسلالمه المتلبِّكة يُشبه ما تجده في مقابر المصريين القدماء من ممرات ودهاليز أُرِيدَ بها تضليل اللصوص. وبعد أن سلكنا عدة منعطفات خاطئة جعلتنا نطوف وندور في متاهة لا نعلم لها بداية من نهاية، حتى لفت تخبُّطنا نظر العاملين، كان لا بد أن أفعل شيئاً أكره أن أفعله. لقد اضطررت اضطراراً إلى الاستعانة بأحد المارّين ليدلّنا على طريق مبين يُفضي بنا إلى أي مكان آخر نتناول فيه غداءنا خارج قاعة الطعام.

فدلنا أحدهم على صالات الشاي، فإذا بنا، بعد أن سلكنا مزيداً من المنعطفات الخاطئة، أمام مِصعدٍ نُحاسيّ اللون وافق على نقلنا إلى هناك. وبينما كنا نبحث عن طاولة نجلس إليها، شعرت بوخز الندم على اختياري لهذه الثياب. فلم يكن سروالي القصير وقميصي الحقير مناسباً لمكان تجد فيه رجالاً قد انحنت ظهورهم من الكِبَر ينظفون بِتَمَهُّل أرائك مخمليّة

حمراء اللون، وأشخاصاً تظهر عليهم سيماء الأناقة والبهاء يرتدون صدريات فُصِّلَت عليهم تفصيلاً ويحملون الشطائر الشهية إلى زبائن يغلب عليهم الملل.

يا للعار! تواريتُ خلف أسرتي خجلاً من سراويلي القصيرة، وجاء مَنْ أرشدنا إلى طاولة باهرة تُظلِّها شجرة مُزْهِرة. وانشرح صدري حينما أتت أسرة أخرى ورأيت أن الرجل الوحيد فيهم يرتدي مثلي سراويل قصيرة. ولكن سرعان ما تحول انبساط الأسارير إلى شعور بالخجل مرير حينما تَبَدَّى أنهم من آيرلندا. وقلتُ في نفسي: "ماذا سيظن بنا كل هؤلاء الرجال ذوي السراويل الضيقة البيضاء والأحذية اللامعة الطلاء؟ هل سيقع في ظنهم أننا، معشر الإيرلنديّين، لا نقدر حتى على شراء سراويل لائقة؟".

وبعد تناول الغداء، تجولنا في القسم الذي يقصده الآباء لشراء ملابس الأبناء، وكانت أرضياته قد فُرشت ببُسط أثمن وأجود مما يُفرش للأمراء والنبلاء. وأصابتني أسعار الملابس المعروضة بدرجات متفاوتة من الهلع والكدر والتهكم والحنق. نظرتُ إلى طفلتي الرضيعة، الحسناء الوديعة، في سروالها البسيط وقميصها الزهيد الذي سال عليه لعابها ولصقت به بقايا طعامها، وتساءلت في نفسي: هل أصابني الإخفاق وضاقت بي الأرزاق حتى إني لأعجز عن أن أكسو بشرتها الرقيقة بثياب الكَشْمير الأنيقة التي تُغسل بطريقة يدوية لا بغسالة آلية؟!

ثم اجتاحتني موجة من السُّخط الشديد أوقعت أسرتي في الحرج إلى حد بعيد، إذ اندفعتُ إلى إحدى البائعات مُزمجِراً وسألتها مُستنكِراً: أتظنون أن شخصاً بكامل قوته العقلية وقدرته الإدراكية يقبل أن يدفع ثلاثمائة من الجنيهات الإسترلينية ليبتاع لطفله الرضيع ثوباً قصيراً لا يُجْدِي في الحر ولا في الصقيع؟! ويبدو أن سؤالي وقع عليها وقْع هجوم مُباغت أتاها على غير توقُّع أو استعداد، ولكنها لم تستعن على صد هذا الهجوم برجال الأمن، بل قالت بابتسامة:

"يا للعجب! إن هذا الثوب على وجه التحديد يحظى برواج شديد وإقبال أكيد، فهو فائق الجودة، مُتقَن الصنع و...". وصمتت برهة ثم قالت: "كلا، إنك على حق. إنهم لا يشترونه لجودته، بل لشهرته. ولا يزنونه بميزان الأفضلية والأهمية، بل بميزان العلامات التجارية، ولا يعنيهم نَسْجه ونفعه، بل اسمه ووَسْمُه. ولِمَ لا وهم على أضعاف ثمنه قادرون!".

مُقتبس بتصرف من مقال بقلم كونور بوب نُشر في جريدة التايمز الآيرلندية بتاريخ 29 أغسطس 2018